

مَفْظَلٌ

إنَّ الحديثَ عن الدِّراساتِ اللُّغويةِ اللِّسانيةِ قبلَ ظهورِ التَّداوليةِ ،يقودنا مباشرةً إلى تلك الدِّراساتِ التي نُعتت " بالشَّكليةِ الصُّوريةِ"،حيث نشأت في أعقاب انحسار المنهج التقليدي وإعادة النَّظر في مقولات المنهج التاريخيِّ المقارن .

ويمكن أن نُقسِّمَ هذا النَّوعَ من الدِّراساتِ إلى اتجاهينِ أساسيينِ هما:

-الاتِّجاهِ البنيويِّ الوصفي - الاتِّجاهِ التوليديِّ التَّحويليِّ .

فقد اهتمتِ البنيويةُ باللُّغةِ كبنيةٍ مُغلقةٍ انطلقاً من إقرار رائدها السويسري فيردينان دي سوسير F.D.Sausure أنَّ موضوع اللِّسانياتِ الوحيد هو اللُّغة في ذاتها ولأجل ذاتها، وفصله بين ثنائية اللُّغة والكلام. اللُّغة كظاهرة اجتماعية وكنظام قائم بذاته لا تخضع إلاً لنظامها ولا تُدرس إلاً في ذاتها ولذاتها، والكلام كظاهرة فردية وكممارسة خاصة بكلِّ فرد.

فتميّزت هذه الفترة بالنَّظر إلى اللُّغة نظرةً تحليليةً جديدةً والتَّفكير فيها بطريقةً علميةً موضوعيةً مجردةً في جميع مستوياتها المعروفة مع إهمال الكلام واعتباره عنصراً ثانوياً.

لقد أثرت البنيوية في الدِّراسات اللُّغوية ،فظهرت مدارس لسانية مختلفة في أمريكا وأوروبا تتباين في درجة التَأثر وكيفية الأخذ بالمبادئ السويسرية .

وعلى الرَّغم من انِّساع الهوةِ بين الاتجاهين الأمريكي والأوروبي في موضوع الدِّراسة:فاتَّجاه يعتمد الكلام (الأمريكي)، والآخر يعتمد اللُّغة(الأوروبي) ،ولكنَّ ذلك ما هو إلاً تفريق شكلي لأنَّ

اللِّغَةُ
والكلام يُكمِّلان بعضهما بعضاً، والتفريق بينهما يؤدي إلى الدخول في حلقة تساؤل مفرغ:
من فيهما يُدرس قبل الآخر، اللُّغة قبل الكلام أو العكس ؟

واكتفت هذه الدِّراسات في البداية بدراسة الجملة ثم تجاوزتها في الفترة الأخيرة إلى مستويات أعلى كالنَّص والخطاب، ممَّا ولَّد فروعاً لغوية ذات مفاهيم جديدة مثل:تحليل النَّص ،تحليل الخطاب ،نحو النَّص ،....،والنَّص في المنظور البنيوي هو النسيج اللُّغوي

المُغلق الذي يُدرس من خلال علاقة مستويات اللُّغة داخله بعضها ببعض، وإدراك تنظيمه وتحليل الروابط وتصنيفها.

أمَّا الاتِّجاه التوليدي التَّحويلي فقد انتقل باللُّغة من مرحلة الوصف إلى مرحلة التَّفسير، أو من طابع السكون والجمود إلى الطابع الإبداعي الخلاق .

فتشومسكي Chomsky يعيب على المناهج البنيوية اهتمامها بالأشكال اللُّغوية المنجزة، فراح يربط بين العقل واللُّغة، باعتبار أنَّ الإنسان يُنتج ويُفسِّر ما لا حصر له من الجمل بما فيها الجمل التي لم يسبق أن سمعها من قبل وفق قواعد صورية، فيصف الظاهرة اللُّغوية دلاليا بردِّ بنيتها السطحية المنجزة فعلاً إلى بنية عميقة، دون اعتبار البُعد الخارجي للظاهرة من موقف المتكلِّم والمخاطَب والظروف الكلامية التي تكتنفها.

وقد اهتمَّ هذا الاتِّجاه باللُّغة عموماً و بالاكتساب اللُّغوي لدى الطِّفل والعناية بتفسيره بطريقة منطقية رياضية، ممَّا نحا به نحو التَّجريد، واصطناع جمل صحيحة نحوياً لكنَّها غير مفهومة دلاليا فكان من مآخذ النظرية التوليدية التي اهتمت بالمكوِّن الدلالي في مراحلها المتأخرة، فظهر مفهوم النحو التَّحويلي الذي يرى أنَّ اللُّغة مجموعة من البنيات العميقة المحدودة، التي يمكن أن تُكوِّن عدداً غير محدودٍ من الجمل عن طريق قواعد التحويل .

إنَّ جُلَّ هذه الدراسات قد وقفت في بحثها عند حدود الجملة ولم تُولِ أهميةً للُّغة بصفتها أداة تواصل، فأهملت الكثير من الظواهر المتعلقة بالاستعمال اللُّغوي والتحقُّق الفعلي التواصلي للُّغة أثناء الاستعمال أو التخاطب.

فظهر الاتِّجاه التواصلي كردَّة فعل على المدارس البنيوية الشكلية، وانبثقت عنه تيارات لسانية ذات أسس معرفية تهتمُّ بالاستعمال اللُّغوي التواصلي في إطاره الاجتماعي، وتحديد سياق التلقُّظ وأنواعه ومجموع العناصر المكوِّنة له، ودور كل عنصر في إنتاج الخطاب وتأويله وتفسيره واستنتاج أهدافه ومقاصده....

وتجلَّى هذا الاتِّجاه في مناهج كثيرة ركَّز كلُّ منها على جانب معيَّن رغم الإطار العام الذي يجمعها (إطار التواصل) منها:

لهذا ومرة لهذا ،والجمع دُولَاتٌ و دُولٌ ،وقال أبو عبيدة : الدُّوْلَةُ بالضمِّ اسمٌ للشيء الذي يُتداول به بعينه والدُّوْلَةُ بالفتح ،الفعل .

وفي حديثِ أشرط السَّاعة : إذا كان المغنمُ دُولًا . جمع دُوْلَةٍ بالضمِّ وهو ما يُتداول من المال فيكون لقوم دُون قوم ،وقال الزجاج : الدُّوْلَةُ اسم الشيء الذي يُتداول ، والدُّوْلَةُ ،الانتقال من حال إلى حال ،وفي حديث الدعاء :حدَّثني بحديث سمعته من رسول الله بينك وبينه الرِّجال أي ؛لم يتناقله الرِّجال ويرويه واحدًا عن واحد . وإنما ترويه أنت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم

اللِّيْثُ :الدُّوْلَةُ والدُّوْلَةُ لُغْتَان .. وتداولنا الأمر أخذناه بالدُّوْل .وقالوا : دواليك أي مُداولة على الأمر ،ودالت الأيَّام أي دارت والله يُداولها بين النَّاس .وقولهم دواليك أي تداولاً بعد تداولٍ (1) .

القَصْدُ لُغَةً : القصد استقامة الطريق ،قصد يقصد قصدًا فهو قاصِدٌ ،وقوله تعالى (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) أي ؛على الله تبين الطريق المستقيم والدُّعاء إليه بالحجج والبراهين الواضحة والقصدُ العدلُ ...

والقصدُ : الاعتماد والأُمُّ ،قصدُه ،يقصدُه قصدًا ،وقصد له ،وأقصدني إليه الأمر ، وهو قصدك أي تجاهك ،وكونه اسمًا أكثر في كلامهم .والقصدُ :إتيان الشيء ،نقول :قصدتُه ،وقصدتُ إليه بمعنى وقد قصدت قَصَادَةً ... وقصدتُ قَصْدَهُ: نحوْتُ نحوه (2) .

الإفادَةُ لُغَةً : الفائدة ما أفاد الله العبدَ من خير يستفيده ويستحدثه ،وجمعها الفوائد . ابن شُمَيْل :يقال :أنهما ليتفايدان بالمال بينهما أي يُفيد كلُّ واحد منهما صاحبه والنَّاس يقولون : هما يتفاودان العلم أي يُفيد كلُّ واحد منهما الآخر ،الجوهريّ : الفائدة ما استفدت من علم أو مال ،تقول منه : فادتُ له فائدةٌ .الكسائيّ: أفدتُ المالَ أي أعطيتُه غيري ،وأفدته استفدته (3) .

(1) ابن منظور، لسان العرب ،المجلد 02، ص 431 ، 432 ، (مادة دَوْل) .

(2) نفسه ، المجلد 05 ، ص 264 ، 265 ، (مادة قصد) .

(3) نفسه ، المجلد 05، ص 178 ، (مادة فيد) .

أصطلاحًا: قُوبلت التّداولية كمصطلح عربيّ بمصطلح Pragmatique في اللّغة الفرنسية ،و pragmatics في اللّغة الإنجليزيّة ،الذي يُمكن أن يورّخ له منذ القدم ،حيث كانت تُستعمل ككلمة pragmaticus اللّاتينية وكلمة pragmaticos الإغريقيّة بمعنى "عملي" (1) .

ولم يرتضِ كلُّ الدّارسين "التّداولية" للدّلالة على المقصود ،ولذلك اختلفوا في ضبط المُقابل التّرجمي لهذا المُصطلح الَّذي يُغطّي جميع مساحته المفاهيمية :

- فمنهم من قابل Pragmatique بالاستعمالية كما فعل عبد الرحمن الحاج صالح.
- وقابلها عادل فاخوري في كتابه "تّيّارات في السيمياء" بعلم التّداول.
- وقابلها محمد عَنّاني في "معجمه المصطلحي" ب التّداولية ،أو السّيّاقية أو المواقفية ،وهو يقول : "قد نختار أن نقبله -مصطلح التّداولية- ونُشيعه ونُفشيّه، بشرط أن نشرحه الشّرح الوافي ،ونُصرّ على تحديد معناه في كلِّ مرّة حتّى يثبت في أذهان النّشء".
- وقدّم مترجمًا كتاب "تحليل الخطاب" ليول و براون مقابلاً هو علم المقاصد (2).

يقول محمد محمد يونس : "أفضّل ترجمة مصطلح pragmatics بعلم التّخاطب وليس بالتّداولية أو النّفعية أو الذارعية كما يفعل عدد من اللّغويين العرب،توهّمًا منهم بأنّها pragmatics و pragmatism شيءٌ واحدٌ ،والواقع أنّ المصطلح الأوّل يُطلق على الدّراسات التّي تُعنى بالمعنى في السّيّاقات الفعلية للكلام ،وهو ما يتّفق مع معناه الحرفي وهو "علم الاستعمال" ... ولذا فإنّ ترجمة pragmatics بعلم التّخاطب أنسب - في رأيي- من الخيارات التّي اطلّعتُ عليها حتّى الآن .أمّا pragmatism فهي مدرسة فلسفية ظهرت في أمريكا تذهب إلى أنّ الفكرة النّظرية لا تُجدي نفعًا، ما لم تكن لها تطبيقات عملية" (3).

وهذا ما يذهب إليه مسعود صحراوي في هامش له في كتابه "التّداولية عند العلماء العرب" ،فيُقرُّ أنّ التّداولية ليس ترجمة لمصطلح le pragmatisme الفرنسي لأنّ هذا

(1) عادل الثامري ، التّداولية ظهورها وتطورها ، ص01 .

(2) بلعابد عبد الحق ، تداوليات الخطاب القانوني، ص265،266.

(3) محمد محمد يونس، أصول اتجاهات المدارس اللسانية الحديثة، ص173 .

الأخير يعني الفلسفة النفعية الذرائعية⁽¹⁾. وسيكون في الفصول اللاحقة حديث عن الجذور الفلسفية للتداولية والصلة الأكيدة بينهما.

وإن كان قد اختلف في إيجاد المقابل الاصطلاحي للتداولية، فإن الاختلاف حول إيجاد تعريف لها أمرٌ طبيعي كذلك، فأقدمُ حدًّا للتداولية نجده عند شارل موريس (1938) يقول: "التداولية جزءٌ من السيميائية التي تُعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات"⁽²⁾.

و السيمياء عند شارل موريس تنقسم إلى ثلاثة مستويات هي :

- التَّركيب : ويدرس العلاقة بين العلامات (حدوده الجملة) .

- الدَّلالة : وتدرس العلاقة بين العلامات والأشياء .

- التَّداولية التي تتدخل - بعد قصور المستويين الأولين - عن معالجة كل مشاكل اللُّغة خاصَّة الجانب التَّواصلِي، لتدرس علاقة العلامات بمُستعمليها، وأوجدت لذلك مفاهيم خاصَّة كانت غائبة عن فلسفة اللُّغة واللِّسانيات⁽³⁾ .

ويقول صلاح فضل : "التَّداولية هي الفرع العلمي من مجموعة العلوم اللُّغوية التي تختصُّ بتحليل عمليَّات الكلام بصفة خاصَّة، ووظائف الأقوال اللُّغوية وخصائصها خلال إجراءات التَّواصل بشكل عام"⁽⁴⁾.

- "التَّداولية هي دراسة الأسس التي نستطيع بها أن نعرف لِمَ تكون مجموعة من الجُمَل شاذَّة anormalaus تداوليًّا أو تُعدُّ في الكلام المُحال، كأن يُقال مثلاً :أرسطو يوناني لكُنِّي لا أعتقد ذلك. أو يُقال: أمرك بأن تُخالف أمري، أو يُقال : الشَّمس لو سمحت تدور حول الأرض .وعلى الرِّغم من أنَّ إيضاح الشُّذوذ في هذه الجمل قد يكون سبباً جيِّداً

(1) مسعود صحراوي ، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، ص 15.

(2) نعمان بوقرة ،محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، ص174.

(3) علي آيت لوشان ،السياق والنص الشعري،ص56.

(4) نعمان بوقرة ،المرجع السابق ، ص174.

للوصول إلى نوع من الأسس التي تقوم عليها التداولية فهو لا يُعدُّ تعريفاً شاملاً لكلِّ مجالاتها⁽¹⁾.

- التداولية هي دراسة اللُّغة من وجهة نظر وظيفية *Functional perspective* ، وهو نوع من التعريف يُحاول أن يوضِّح جوانب التَّركيب اللُّغوي بالإحالة إلى أسباب غير لغوية، لكنَّه رغم ذلك لا يمنح التداولية استقلاليتها عن كثير من العلوم اللُّغوية الأخرى، فالاهتمام بالأسباب غير اللُّغوية لا يُعدُّ معياراً دقيقاً يُميِّزها عن علم اللُّغة الاجتماعي، وعلم اللُّغة النَّفسي مثلاً، اللَّذين يشتركان مع التداولية في تبيين: أثر العلاقات الاجتماعية بين المشاركين في الحديث، موضوع الحديث، مرتبة المرسل والمرسل إليه، وجنسهما وانتباههما، وذاكرتهما وشخصيتَّهما ... إلى غير ذلك من الجوانب غير اللُّغوية التي لها دور في الأداء اللُّغوي بين المتخاطبين.

- التداولية هي دراسة كلِّ جوانب المعنى التي تُهملها النظريات الدلالية، فإذا اقتصر علم الدلالة على دراسة الأقوال التي تنطبق عليها شروط الصدق *Truth conditions*، فإنَّ التداولية تُعنى بما وراء ذلك ممَّا لا تنطبق عليه هذه الشروط⁽²⁾.

وهذا التعريف يقودنا إلى مسألة هامة طُرحت عند كثير من اللسانيين لتحديد الفرق بين التداولية وعلم الدلالة، والذي لخصه شارل موريس *Charles Moris* 1938 بقوله: "الدلالة تبحث في علاقة العلامات بمدلولاتها والتداولية تهتمُّ بعلاقة العلامة بمؤولها"⁽³⁾.

-التداولية فرعٌ من علم اللُّغة يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم *Intention speaker*، أو هو دراسة معنى المتكلم *Speaker Meaning*. فليس بالضرورة أن يعنى المتكلم ما تحمله ألفاظه من معاني، إذ كثيراً ما يحدث العكس، فقولُ القائل: أنا مريض مثلاً. قد يعنى الإخبار عن حالته الصحيَّة المتدهورة فعلاً، أو يكون تعبيراً عن عدم رغبته في مساعدتك إن كنت طلبت منه ذلك سلفاً.

(1) محمود أحمد نحلة ، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص 11.

(2) نفسه، ص 12.

(3) عيد بلع ، البعد الثالث في سيميوطيقا موريس ، ص 01 .

فبعض الباحثين رأى أن للمعنى ثلاثة مستويات :

1/المعنى اللغوي المستفاد من دلالة الكلمات والجمل مباشرة .

2/ومعنى الكلام الذي يُعين السّياق على استنباطه.

3/ومعنى المتكلم الموجود بالقوّة.

ولعلّ أوجز تعريف للتداولية هو : "دراسة اللّغة في الاستعمال in use ،أو في التّواصل in interaction ،لأنّه يُشير إلى أنّ المعنى ليس شيئاً متأصلاً في الكلمات وحدها .ولا يرتبط بالمتكلم وحده،ولا السامع وحده ،فصناعة المعنى تتمثّل في تداول اللّغة بين المتكلم والسّامع في سياق محدد (مادّي واجتماعي ولغوي) وصُلاً إلى المعنى الكامن في كلام ما"⁽¹⁾

وتشير فرانسواز أرمينكو إلى أنّ التداولية درسٌ غزيرٌ وجديدٌ، لا يمتلك حتى الآن حدوداً واضحةً،ولها صلة بالفلسفة والأبحاث اللسانية .

كما لها اتجاهاتٌ مختلفة نتج عنها تداوليات عديدة منها :

-تداولية البلاغيين الجدد.

-تداولية السيكلوجيين.

-تداولية اللسانيين.

-تداولية المناطقة والفلاسفة.

-وهناك تنبؤ بتداولية الأدباء⁽²⁾.

كما ترى بأنّ التداولية درسٌ يسعى إلى الإجابة عن أسئلة كثيرة من قبيل :⁽³⁾

-ماذا نصنع حين نتكلم ؟

-ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟

(1) محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص 13، 14 .

(2) فرانسواز أرمينكو،المقاربة التداولية ، ص08.

وينظر: علي آيت لوشان ،السياق والنص الشعري ، ص 56 .

(3)فرانسواز أرمينكو،المرجع السابق، ص 11 .

- لماذا نطلب من جارنا حول المائدة أن يمدنا بمايونيز النّوم بينما يظهر واضحاً أنّ في إمكانه ذلك ؟

- فمن يتكلّم إذن وإلى من يتكلّم؟

- من يتكلّم ولأجل من ؟

- ماذا علينا أن نعلّم حتّى يرتفع الإبهام عن جملة أو أخرى؟

- ماذا يعني الوعد بشيء ما ؟

- كيف يمكننا قول شيء آخر ، غير ما كنّا نريد قوله؟

- هل يمكن أن نركن إلى المعنى الحرفي لقصد ما؟

- ما هي استعمالات اللّغة ؟

- أيّ مقياس يُحدّد قدرة الواقع الإنساني اللّغوي ؟

وككلّ علم تزخر التّداولية بزخم من المفاهيم التي رأيت أن أخصّ أهمّها بتعاريف مختصرة حتّى تتبين حقيقتها منذ البداية.

***الأفعال الكلامية:** الفعل الكلامي هو القول المعبر عن عمل فهناك أعمال لا يمكن إنجازها إلّا من خلال اللّغة ، وهذا ما يجعل الخطاب فعلاً .

نحو : نلتمس منكم الموافقة على هذا الأمر .

فقد أنجز المرسل في هذه الجملة فعلاً لغويًا هو الالتماس بما تضمّنه من اختيار الفعل

(نلتمس) الدّال على طلبه ،تضافرا مع اعتبارات سياقية أخرى⁽¹⁾.

***الإشاريات :** هي تلك الأشكال الإحالية التي ترتبط بسّياق المتكلّم ،مع التفريق

الأساسي بين التعبيرات الإشارية القريبة من المتكلم مقابل التعبيرات الإشارية البعيدة عنه⁽²⁾ ،

و ترتبط الإشاريات ارتباطًا وثيقًا بالسياق الذي يتم التلقّف بها فيه فلا تُفهم ولا تُفسّر بمعزل

عنه فإذا أخذت جملةً مقطّعةً من سياقها التّداولي مثل: إنهم سيدرسون اليوم في حجرة أمام

حجرتنا . بدت شديدة الغموض، مُستغلقة الفهم ،فالضّمائر :الهاء ،الواو ،النون،وظرف

(1) ينظر ج أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة كيف ننجز الأشياء بالكلام ، ص115 وما بعدها .

(2) ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية ، ص81.

الزمان (اليوم) وظرف المكان (أمام) ،كُلُّها أدوات لغوية خالية من أيِّ معنى في ذاتها، تُحيل إلى مراجع مُختلفة وغير ثابتة تتحدّد في سياق الخطاب التّداولي.

و ميّز الباحثون بين خمسة أنواع منها هي:

الإشارات الشخصية ،الإشارات الزمانية، الإشارات المكانية ،الإشارات الاجتماعية،الإشارات الخطابية النصّية ،مع اختلاف في الأخذ بها جميعا أو ببعضها فقط. فكل خطاب لا يتم إلا بحضور الأدوات الإشارية الثلاثة (الأنا، هنا، الآن) .ولذلك لا يعترف كثير من الباحثين إلا بالأدوات الإشارية الثلاث الأولى.

أ/الإشارات الشخصية:

وتتمثل بشكل عامّ في الإشارات الدّالة على المتكلم المفرد (أنا) ،أو المتكلم المعظّم نفسه أو معه غيره (نحن)، والإشارات الدّالة على المخاطب مفردا أو جمعا مذكرا أو مؤنثا، والإشارات الدّالة على الغائب إن كان حرّا لأيعرف مرجعه في السّياق اللغوي، أمّا إذا عُرف فلا يدخل في الإشارات .

و"الأنا " لا يُضمّنّها المرسل في خطابه شكلا ،لأنّها حاضرة في بنية الخطاب العميقة، فيُفرّق بين المرسل وغيره من خلال تلفظه بالخطاب .وهي موجودة بالقوّة في ذهن المرسل إليه حتى يستطيع تأويل الخطاب تأويلا صحيحا اعتمادا على معطيات السياق، وممّا يدل على ذلك إحالته لفظا للمرسل إذا ما نقل عنه الخبر فيقول: هو كذا وكذا ... فيُوظّف أداة إشارية تُناسبه إفرادا وتذكيرا و غيبة .

ب/الإشارات الزمانية: هي أدوات لغوية تدلّ على زمان معيّن يُحدده السّياق قياسا إلى زمان التكلّم الذي يشكل مركز الإشارة الزمانية، التي يجبر المرسل إليه على تحديدها حتى يتمكن من تأويل باقي العناصر اللّغوية المكونة للخطاب بناء على معرفتها، لهذا "يجب أن نربط الزمن بالفعل ربطا قويا في مرحلة أولى ،ونربط كذلك بين الزمن والفاعل لأهميته الكبرى في مرحلة ثانية"⁽¹⁾.

(1) المرجع السابق، ص 83 .

ففي قولي مثلا: سأكلمك بعد ساعة، يلزم المرسل إليه العلم بلحظة التلفظ حتى يبنى توقعه عليها، ويتعرّف الوقت المقصود بدقّة.

وقد تحيل هذه الإشارات إلى زمان يستغرق المدّة الزمنية كلّها مثل: اليوم الجمعة، وقد يستغرق بعضها مثل: قرأت درسا خاصا يوم السبت أي في جزء محدد من اليوم، كما يمكن أن يخرج للدلالة على زمان أوسع وأشمل نحو: بنات اليوم، ليشمل العصر الذي نعيش فيه، ولا تحدد بيوم فيه أربع وعشرون ساعة فقط.

وهذه العناصر الإشارية تدلّ على الزمان الكوني، كما تدلّ أيضا على الزمن النحوي اللذين يمكن أن يتطابقا رغم اختلافهما أصالة في كثير من أنواع الاستعمال⁽¹⁾.

ج/الإشارات المكانية:

يُضمّن المرسل خطابه عناصر إشارية للدلالة على المكان نحو: أسماء الإشارة: هذا، ذاك، هنا، هناك... وسائر ظروف المكان: فوق، تحت، أمام /وراء، يمين، يسار...، ويتمّ تفسيرها اعتمادا على مكان التلفظ وقت التلفظ، أو ما يسمّى "مركز الإشارة المكانية" أو قياسا على مكان آخر معروف لدى المتكلم والمخاطب على السواء في السّياق المادّي المباشر الذي قيلت فيه، دون الخروج عن الإطار المعنوي الذي يقصده المتكلم "فيقوم بتحديد المواقع بالانتساب إلى نقاط مرجعية في الحدث الكلامي".⁽²⁾

فإذا قال قائل ما: أريد البقاء هنا. فلا يمكن تفسير العنصر الإشاري (هنا) إلا بالنظر إلى المكان المقصودة الإشارة إليه من قبل المتكلم .

-كما يوجد مصطلح "التقابل الإشاري" الذي يعني أن هناك عديدا من الأفعال التي تحمل في ذاتها معنى إشاريا مثل: الفعل (يأتي) الذي يدلّ على الحركة باتجاه المتكلم والفعل (يذهب) الذي يشير إلى حركة معاكسة (من المتكلم إلى غيره). إلى غير ذلك من الأفعال نحو: أخذ، أعطى....⁽³⁾

(1) ينظر محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص20، 21 .

(2) عبد الهادي بن ظافر الشهري ، المرجع السابق، ص 84.

(3) محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص21، 22، 23 .

د/الإشارات الخطابية (النصية):

وهذا النوع من الإشارات مُخْتَلَفٌ فيه بين الباحثين لالتباس إحالتها إلى سابق أو إلى لاحق، فأسقطها البعض من الإشارات نهائياً. والفرق الجوهرى بينها وبين باقى الإشارات أنها تخلق المرجع الذى تحيل إليه، فقد تكون فى خضم سردك لقصة ما فتذكرك فجأة بقصة ثانية، فتتوقف قائلاً: وتلك قصة أخرى. فإنك هنا تحيل إلى مرجع جديد، وهو شبيه بما يسمّى فى علم السرد: الاستذكار الذى يستعمله الروائيون كتقنية لتبطين الزمن أو تطويله . وللخطاب إشارات تُعدُّ من خواصه، كالعبارات التى تستخدم لترجيح رأي على آخر أو الوصول إلى نتيجة نهائية بعد مناقشة طويلة لأمر ما. نحو: ومهما يكن من أمر ... أو العبارات التى تُستخدم للاستدراك أو العزوف عن كلام سابق نحو: لكنّ أو بل ، أو إضافة شيء جديد إلى آخر سبق فيه القول نحو : فضلاً عن ...

وقد يستعين النصّ بإشارات زمانية أو مكانية فتُستخدم كإشارات خطابية، فيمكن أن يُقال: الفصل الماضى من الكتاب، أو الرأى السابق قياساً على الإشارة الزمنية: العام الماضى مثلاً ... كما يمكن أن يقال: هذا النصّ إحالة إلى نص قريب، أو تلك القصة إشارة إلى قصة ذكرت سابقاً (1).

هـ/الإشارات الاجتماعية:

وهي ألفاظ تُستخدم للدلالة على نوع العلاقة الاجتماعية بين المتكلمين، من حيث هي علاقة رسمية أو علاقة عادية (علاقة ألفة ومودة).

فنجد أن العلاقات الرسمية تسودها صيغ التبجيل والتفخيم فى مخاطبة من هم أكبر سنّاً، وأرفع مقاماً ومستوى مثل استخدام (أنتم) للمفرد، و (نحن) للمفرد المعظّم نفسه، وتشمل أيضاً الألقاب نحو: السيد الرئيس، سعادة الملك، سُمُو الأمير....

أمّا الاستعمال غير الرسمي فهو خال من مثل هذه الألفاظ ومتحرر من قيودها، كالنداء بالاسم مجرداً أو مرخّماً، أو إلقاء التحية الحميمية كصباح الورد أو الفلّ.... الخ.

(1) ينظر نفسه، ص 24 .

كما يمكن أن نجد في مجتمعنا العربي إشارات اجتماعية للدلالة على طبقة اجتماعية بعينها مثل: حرمه، قرينته، عائلته..... إشارة إلى الحياة الزوجية. (1)

*الاستلزام الحواري: يعدّ الاستلزام الحواري من أهمّ المبادئ التداولية ، وتعود نشأته إلى الفيلسوف غرايس (H.P.Grice) في بحث له بعنوان " المنطق والحوار " الذي حاول فيه التفريق بين ما يُقال وما يُقصد في الخطابات المختلفة. فهناك من يقصد ما يقول ، وآخر يقصد عكس ما يقول ، وثالث يقصد أكثر ممّا يقول ، فما يُقال هو ما تحمله الألفاظ والعبارات من معنى حرفي (القيمة اللفظية)، أمّا ما يُقصد فهو ما يُريد المرسل إيصاله إلى المرسل إليه بطريقة غير مباشرة باعتبار هذا الأخير قادرا على التفسير والاستعانة بمختلف المعطيات السياقية لإدراك مراد المرسل، فكان الاستلزام الحواري حلقة الوصل بين المعنى الحرفي الصريح والمعنى المتضمّن .

ويرى غرايس أنّ هناك نوعين من الاستلزام : الاستلزام العرفي (الحرفي): ويتمثل فيما اصطلح عليه أصحاب اللغة الواحدة من دلالات ومعان لألفاظ معينة لا تتغيّر بتغيّر السياقات والتراكيب مثل: لكنّ في العربية التي تستلزم أن يكون ما بعدها مخالفا لما يتوقّعه السامع.

واستلزام حواري: وهو متغيّر دائما حسب السياقات التي يرد فيها. ولإيضاح الاستلزامين

نصوغ المثال الآتي بين مرسل (أ) ومرسل إليه (ب) :

أ- هل الجو ممطر في الخارج؟

ب- عليك بأخذ المظلة وارتداء معطفك أيضا.

فهذا التركيب حامل لمعنيين اثنين في الآن نفسه، فمعناها الحرفي هو المتضمن نصيحة

(ب) ل (أ) بضرورة أخذ المظلة وارتداء المعطف عند الخروج، أما المعنى المستلزم فهو

الإجابة المتضمنة للسؤال المطروح (الجو ممطر خارجا) .

(1) ينظر المرجع السابق، ص 25 .

ولوصف ظاهرة الاستلزام الحواري أوجد غرايس مبدأ حواريا آخر سماه "مبدأ التعاون" تحكّمه مبادئ فرعية أربعة، بحيث يركز عليه المرسل للتعبير عن قصده مع ضمانه قدرة المرسل إليه على فهمه وتأويله⁽¹⁾.

أمّا المُسلّمات الأربعة التي يقوم عليها مبدأ التعاون فهي: ⁽²⁾

- **مبدأ الكمّ:** ويعني وجوب التزام المسهم في الحوار بالقدر المطلوب من المعلومات دون أن يزيد أو يُنقص.

- **مبدأ الكيف:** مفاده أن لا يساهم المتكلم في الحوار بما يعتقد أنه كاذب، وبما لا يستطيع البرهنة عليه.

- **مبدأ الملاءمة (المناسبة، العلاقية):** وينص على أن المشاركة في موضوع الحوار تكون مناسبة وفي الصميم (أي مفيدة)، يقول ديكرود: "على المخاطب تقديم المعلومات اللازمة والتي يملكها عن موضوع الخطاب، وغرضها إفادة المخاطب"⁽³⁾.

- **مبدأ الطريقة:** وتوجب أن تكون المشاركة في الحوار واضحة، موجزة، مرتّبة وبعيدة عن اللبس والغموض.

ويخرق إحدى هذه القواعد الأربع تحصل ظاهرة الاستلزام الحواري⁽⁴⁾.

وللاستلزام الحواري عند غرايس خواص تميزه وهي:

1- يمكن إلغاؤه و ذلك بإضافة قول من قبل المتكلم ينكر ما يُستلزم من كلامه ويحول دونه.

2- أنه متّصل بالمعنى الدلالي للتركيب، ولا علاقة له بالصيغة اللغوية، فلو استبدلت مفردات وعبارات بأخرى تُرادفها لا تقطع الاستلزام .

⁽¹⁾ ينظر صلاح إسماعيل، نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس ، ص78.

⁽²⁾ المرجع نفسه، ص87.

⁽³⁾ حمو ذهبية، لسانيات التلّفظ وتداوليات الخطاب ، ص 176.

⁽⁴⁾ ينظر مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي

3- أنه مُتغيّر بتغيّر السياقات التي يرد فيها ،فيمكن لتعبير واحد أن يؤدي إلى استلزامات مختلفة إذا ما تباينت السياقات.

4- أنه يُمكن تقديره،بمعنى أن المتكلم بإمكانه أن يقوم بمجموعة من الاستنتاجات أوالعمليات الذهنية بناء على ما سمعه من كلام وصولاً إلى الاستلزام المطلوب بعيداً عن المعنى الحرفي⁽¹⁾.

***مبدأ التأدب**: أضافت روبين لاکوف Robin Lakoff إلى مبدأ التعاون مبدأ آخر تفترض وجوده أثناء التخاطب، سمّته "مبدأ التأدب" في مقال لها بعنوان "منطق التأدب". وجعلته واحداً من الافتراضات المنطقية والتداولية المكتملة لسياق التلفظ والمؤدية دوراً هاماً في نجاح عملية التواصل بين طرفي الخطاب. كما وضعت له قاعدتين متلازمتين متمثلتين في الأثر، تعزز كل منهما الأخرى أو تهمشها حسب السياق التلفظي سمتهما "قاعدتا الكفاءة التداولية" وصاغتهما على النحو التالي:

1- كن واضحاً

2-كن مؤدباً.

ويكون المرسل المسؤول عن تغليب إحدى القاعدتين على الأخرى. فإن كان يهدف إلى التواصل المباشر مع الآخرين وتبليغ قصده بحيث لا يخطئه المرسل إليه، سعى جاهداً إلى أن يكون واضحاً، أما إذا كان يهدف إلى التعبير عما يكنه للمرسل إليه سعى إلى أن يكون مؤدباً قدر المستطاع مع أن الوضوح في بعض الأحيان ضرب من التأدب.

ويتفرع عن مبدأ التأدب ثلاث قواعد أخرى سمتها "قواعد تهذيب الخطاب" وهي:

-**قاعدة التعفف**:وهي تلزم المرسل بأن لا يفرض نفسه على المرسل إليه، وذلك بحفظ

مسافة معينة بينهما، وعدم التطفل على شؤونه الخاصة إلا بعد الاستئذان.

-**قاعدة التخيير**: وتفرض على المتكلم أن يترك للمرسل إليه مجالاً للاختيار واتخاذ

قراراته بنفسه وإبقاء خياراته مفتوحة.

(1) ينظر محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص 38،39 .

- قاعدة التّودد: وتعني تودد المرسل للمرسل إليه فينشأ بينهما صداقة تخاطبية حميمية تعويضا للصداقة الحقيقية، ممّا يوّلّد شعورا بالارتياح لدى المرسل إليه لإحساسه بالتساوي مع المرسل، واعتباره من قبل هذا الأخير صديقا مرغوبا فيه.

وتستنتج لأكوف أن هناك علاقة بين مبدأي التعاون والتأدب من ناحيتين: الأولى ناحية اتفاق، والثانية ناحية اختلاف. فأما الاتفاق فتجسده قاعدة التعفف، وذلك عند إنتاج خطاب رسمي واضح فيجد المتكلم نفسه مطبّقا مبدأ التعاون بقواعده، حفظا للوقت وابتعادا عن التطفّل على المرسل إليه أو إحراجه. أمّا الاختلاف فيمكن في إنتاج خطاب وفق قاعدتي التخيير والتودّد، الذي يكون غالبا في الحوارات غير الرسمية تقوية الأواصر والعلاقات الاجتماعية، دون الاهتمام بتبليغ المعلومات وفي هذا خرق لقواعد مبدأ التعاون⁽¹⁾.

* **متضمنات القول:** قد يُحمل المتكلم في مواقف عدّة إلى توجيه خطابه بطريقة غير مباشرة، ويضمّنه أشياء تظلم خفية دون معرفة قوانين الخطاب والقواعد التي ينتظم بها الكلام، فيجبر السامع على التفكير في هذه الأشياء غير المصرّح بها، والكشف عن الكلام المتضمّن في القول الصريح دون أن يفصح به هو الآخر، عن طريق عمليات استنتاجية تتحكّم فيها معطيات السياق بما في ذلك المنطق والتجربة.

ويُجمع التداوليون على أنّ الأسباب التي تجعل المتكلم يلمّح ولا يُصرّح متعدّدة، منها المجتمع وما يحتويه من عادات وأخلاق ودين... الشيء الذي ينعكس على اللّغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية، إضافة إلى بعض المقامات التي تضطرّ المتكلم إلى استخدام متضمنات القول خشية خدش مشاعر المخاطب، أو أن يكون التلميح غاية في ذاته عملاً بمقولة "التلميح أبلغ من التصريح". ويتجلى مفهوم متضمنات القول في نمطين رئيسين هما الافتراض المسبق والقول المضمّر⁽²⁾.

أ/ **الافتراض المسبق:** آلية ذات طبيعة لسانية تدخل ضمن المشاكل التي يدرسها علم الدلالة، إنما المحتوى الذي تأخذه في السياقات المختلفة هو المسوّغ لدراسة التداولية له، يقول

(1) ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري. استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، من ص 97 إلى ص 102.

(2) ينظر عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص 111، 112.

أوركينيوني "إن الافتراض المسبق التداولي هو تلك المعلومات التي يحتويها الكلام، والتي ترتبط بشروط النجاح التي لا بدّ أن تتوفر لكي يكون الفعل الكلامي المزعم تحقيقه قابلاً لأن يفضي من الناحية التأثيرية"⁽¹⁾.

ويشمل الافتراض المسبق المعطيات الأساسية التي تنتقل من المتكلم إلى المتلقي وتكون معروفة ولكنها غير صريحة عندهما، كما يُشكّل خلفية ضرورية لنجاح التواصل، خلفية منظّمة في القول ذاته، أو أنه تلك المعلومات التي لم يفصح عنها، فإنه وبطريقة آلية مدرجة في القول الذي يتضمنها أصلاً بغض النظر عن خصوصيته على حد تعبير أوركينيوني.⁽²⁾

ويقرّ ديكرو في موضع آخر "إذا كان القول المقرّ (فعل الإخبار) هو ما أصرح به باعتباري المتكلم، وإن كان القول المضمر هو الذي أجعل سامعي يستنتجونه، فإن الافتراض المسبق هو ما أقدمه معروفاً بين طرفي الحوار. وإذا شبّهنا ذلك بنظام الضمائر نقول: إن الافتراض المسبق مُقدّم بطريقة تناسب "نحن"، أمّا القول المقرّ فيناسب "أنا"، والقول المضمّر يناسب "أنت"⁽³⁾.

ولعلّ هذا القول يقودنا إلى التساؤل عن أهمية الافتراض المسبق مادام لا يُقدّم معرفة جديدة وإنما يحتوي على معلومات معروفة لدى المتكلم والسامع معاً؟.

إنّ علم طرفي الخطاب بالافتراض المسبق لا ينفى أهميته ولا يُنقص من قيمته، ذلك أنّه يُمثّل القاعدة الأساسية التي يركّز عليها الخطاب في تماسكه العضوي .

هذا ما يؤكده "ديكرو" بقوله "أمّا الافتراضات المُسبقة فإن كان لها وظيفة فهي تمثّل الشرط الأساسي للتماسك العضوي للخطاب"⁽⁴⁾.

(1) المرجع نفسه، ص 118 .

(2) ينظر الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية ، ص 34 وما بعدها. وينظر ج ب براون وج يول، تحليل الخطاب ص 37 وما بعدها.

(3) عمر بلخير ، المرجع السابق، ص 114.

(4) حموّ ذهبية، لسانيات التلفظ وتداوليات الخطاب، ص 179.

ب/القول المضمَر: تُشكّل الأقوال المضمرة النمط الثاني من متضمنات القول التي تُستنتج من السّياق ووضعية الخطاب، ويُعبّر القول المضمَر "عن محتوى موجود في الملفوظات بصفة غير مباشرة، وكونه بدون دال يُميّزه فإنّ مُحتواه مرتبط بالمحتوى الصريح الذي يتميّز بداله الخاص وبذلك يمكن اعتبار المحتوى الأول أنه موجود ضمناً ولكنّه غائب على السطح" (1).

وتُعرّفه أوركينيوني بأنه كل المعلومات التي يمكن للكلام أن يحتويها، ولكن تحقيقها في الواقع يبقى رهن خصوصيات سياق الحديث" (2).

مثال ذلك جملة: "إن الحساء ساخن"، التي يمكن أن يستنتج السامع من خلالها قائمة من التّأويلات حسب السياقات الواردة فيها مثل أن يعتقد أنها:

- دعوة للحذر من احتراق لسانه.

- أمر بالتخلي عن فكرة تناول الحساء وقضاء أمر آخر أهمّ.

- أو رغبة في تغيير نوعية الأكل ... إلى غير ذلك من التّأويلات الممكنة

إن ما يثير التّأويل في كل الأحوال ليس السؤال: ماذا يقول المرسل؟ إنما لماذا يقول ما يقوله الآن في هذا السياق بالذات؟ (3)

إنّ الافتراض المسبق والقول المضمَر وعلى الرغم من انتمائهما إلى نفس نمط الحديث و استنادهما إلى حسابات تأويلية و واستنتاجية، إلا أنّهما يختلفان في أنّ الأوّل وليد ملابسات الخطاب، بينما الثاني وليد السّياق الكلامي أي أنّ الافتراض المسبق "يتعلّق مباشرة بالبنى التركيبية العامّة (القول ذاته)، على عكس القول المضمَر الذي يتمّ استنتاجه

(1) المرجع نفسه، ص 178. وفي نفس معنى هذا القول ينظر ج ب براون و ج يول، تحليل الخطاب، ص 39 وما بعدها.

(2) عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص 118.

(3) فيليب بلا نشيه التداولية من أوستين إلى غوفمان ص 144 وما بعدها. وينظر حمود ذهبية، لسانيات التلفظ وتداوليات

الخطاب، ص 179.

انطلاقاً من الملكة البلاغية التداولية الموسوعية والمنطقية للمستمع والمتكلم⁽¹⁾ على حدّ تعبير أوركبوني.

***القصـد:** "إنَّ التَّداوُلِيَّةَ وَبِحَسَبِ بَعْضِ الاعتبارات هي دراسة الطرق التي تتجلى بها المقاصد في الخطاب، ومن أبرز الخطابات التي تدلُّ على ذلك، تلك الخطابات التي تشتمل على الأفعال اللغوية سواءً أكانت تقف عند المستوى الإنجازي أم تتجاوزه إلى المستوى التأثيري"⁽²⁾. فالبنية التركيبية المستخدمة في التلقُّظ لا يمكنها تأدية المعاني في ذاتها، بل يُوكَلُ ذلك إلى المتكلم الذي يُوظِّفها حسب ما يقصد، ونظراً لأهميَّة البالغة التي يُشكِّلها مبدأ القصد في الخطابات اللغوية المختلفة، اهتمت الدراسات التداولية المعاصرة به، وعكفت على دراسته باعتباره ركيزة أساسية لتجسيد الفهم والإفهام في العمليَّة التواصليَّة.

ورأى معظم الباحثين أنَّ قول القائل لا يُمكن أن يُفيد شيئاً ما لم يقصد أموراً ثلاثة هي:

(3)

1- أن يدفع قوله إلى نهوض المقول له بالجواب.

2- أن يتعرَّف المقول له على هذا القصد.

3- أن يكون انتهاض المقول له بالجواب مُستتداً إلى تعرُّفه إلى قصد القائل.

ونلاحظ هنا ارتباط مبدأ القصد بمبدأ الإفادة في الخطاب.

والعناية بالقصد شكل صلب نظرية "غرايس"، من خلال اقتراحه لمبدأ التعاون المؤدِّي

إلى تفاعل طرق الخطاب تفاعلاً ناجحاً ممَّا يُولِّد تواصلاً ناجحاً أيضاً.

وسنُرجئ التوسُّع في الحديث عن هذا المبدأ إلى الفصول القادمة مادام يُشكِّل لبَّ

البحث وموضوعه الأساسي .

(1) عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص 120 .

(2) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص 198 .

(3) ط.ع الرحمن، أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 45.

* **الحجاج**: تتجاذب مفهوم الحجاج حقول معرفية متباينة منها اللسانيات والمنطق والسياسة والقضاء والفلسفة... وكل منها يجعل له موضوعاً خاصاً بها. وقد كان "شايم برلمان" (Ch. Perlman) و"ميشال مايير" (M. Meyer) من منظري نظرية الحجاج المعاصرة، ويشير عندهم هذا المصطلح إلى الخطاب الصريح أو الضمني الذي غايته الإقناع والإفحام. (1) يقول "مايير": "يعرف الحجاج عادة بكونه جهداً إقناعياً (إفحامياً) ، ويعتبر البعد الحجاجي بعداً جوهرياً في اللغة لكون كل خطاب يسعى إلى إقناع من يتوجّه إليه" (2) ، ويبنى النص الحجاجي في شكله الرئيسي على مكونات ستة هي: "الدعوى (أو النتيجة) والمقدمات أو تقرير المعطيات و التبرير والدعامة ومؤشر الحال والتحفظات أو الاحتياطات." (3) ويعتبر البعض أنّ دراسة الحجاج في الخطاب اللفظي أحد موضوعات التداولية ، ذلك أنّ " الخطاب الحجاجي يخضع ظاهرياً وباطنيّاً لقواعد شروط القول والتلقي، بعبارة أخرى إنّ كلّ خطاب حجاجي تبرز فيه مكانة القصدية والتأثير والفعالية وبالتالي قيمة ومكانة أفعال الذوات المتخاطبة." (4)

وينطوي الخطاب الحجاجي على البعد التداولي عدّة مستويات؛ فعلى مستوى أفعال الكلام المتداولية في الحجاج نجد الأفعال العرضية التي تستخدم لعرض مفاهيم أو بسط مواضيع مثل: أكد، اعترض، أجاب...، وعلى مستوى السّياق هناك صيغ تجعل من الخطاب حجاجاً ضمنياً أو صريحاً كالتعابير الإنجازية التي تربط قولاً ما بباقي الخطاب وبالسّياق المحيط ككلّ، أو قولاً بأقوال سابقة أو لاحقة مثل: أستنبط، أستخلص، أعترض...، ثمّ على مستوى الحوار أو التّحاور إذ إنّ الحجاج هو الحوارية وما تتطلبه من عمليات حجاجية تتنوّع تقنياً بتنوّع أنماط التّحاور و مراتبه. (5)

(1) ينظر حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي "عناصر استقصاء نظري"، ص 99.

(2) نفسه، ص 99.

(3) محمد العبد، النص الحجاجي العربي دراسة في وسائل الإقناع، ص 44.

(4) حبيب أعراب، المرجع السابق ، ص 101.

(5) ينظر المرجع السابق، ص 102، 103. و ينظر ليونيل بلينجر، الآليات الحجاجية للتواصل، ص 32.